المرأة المغربية وإسهامها
في بناء الدرس العقدي بالمغرب

الباحث لحسن الزغاري
خريج سلك العالمية العليا بجامع القرويين
طالب بماستر الثوابت الدينية بالمغرب بكلية ظهر مهراز بفاس
المغرب

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم، الذي إذا قال أفهم، وإذا حاجج أفحم، اللَّهمَّ صَلِّ عليه صلاة تُخرجنا بها من ظلمات الوهم، وتكرمنا بنور الفهم، وتوضح لنا ما أشكل حتى يفهم، فإنك تعلم ولا نعلم، وأنت علاّم الغيوب. وبعد:

رغبة مني في المساهمة بهذا البحث وعرفانا بالفضل العظيم الذي ندين به للمرأة المغربية أمّاً وأختا وزوجةً وبنتاً، وما قدمته ولا تزال تقدمه على مر الأزمنة والعصور للأمة المغربية. ورحم الله القائل "اذا علمت ولدا فقد علمت فردا، واذا علمت بنتا فقد علمت أمة" ولعل في هذا المثل المأثور عن ابن باديس أكثر من دلالة على دور المرأة في بناء المجتمع وتأسيس الحضارة، فكلما تعلمت المرأة وتحلت بالفضائل الراقية كلما نسخت تعليمها وحسن أخلاقها على أبنائها. ومن تأمل في تاريخ الأمة المغربية وجد وفرة من نساء مغربيات فضليات كانت لهن بصمات بارزة في مجال العلم والمعرفة وأبواب البر عبر تاريخ هذه الأمة. بل ويشهد جامع القرويين العامر ومنذ تأسيسه في أول يوم من طرف فاطمة الفهرية وإلى زماننا هذا، على إسهام المرأة في بناء الهوية وترسيخ الخصوصية المغربية في كل مجالات الحياة، خاصة ما تعلق منها بعلم العقيدة "وهي الجانب النظري الذي يطلب الايمان به أولا وقبل كل شيء إيمانا لايرقى إليه شك، ولا تؤثر فيه شبهة"[1] إلا أن الباحث في المجال سيجد نفسه أمام صعوبات جمة، نظراً لعدم وجود طبعات لكتب نفذت من السوق رغم كثرة المؤلفات في الموضوع سواء المطبوعة منها أو المخطوطة، ولعل هذه الإشكالية هي أصعب عقبة يجدها الطالب الباحث في كل ماله علاقة بمؤلفات المغاربة، وربما يلحظ قلة المؤلفات في سير النساء الفضليات اللاتي كانت لهن بصمات علمية ومعرفية رغم كثرتهن، إذ الغالب فيها اقتصار أصحابها على إشارات ونتف متفرقة دون ذكر التفاصيل.

ولقد كان من فضل الله على بلاد المغرب الأقصى أن سطعت أنوار الرسالة المحمدية المباركة على ربوعه الطيبة على يد التابعي الجليل عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري حيث أشرب أهل المغرب تعاليم الإسلام وصاروا ينشرون عطره الزكي في كل بقاع الأرض وبكل طريقة ووسيلة.

وبالنظر إلى السياق التاريخي والارتباط الجغرافي الذي عبرت منه الحضارة المغربية نلحظ جليا دور جامع القرويين في نشر تعاليم الإسلام الحنيف منذ تأسيسه وإلى اليوم وذلك بإسهام من فاطمة أم البنين الفهرية القيروانية "التي عزمت على تحقيق مشروع ظل إلى اليوم شاخصا ناطقاً يرفع من شأن المرأة المسلمة إلى الأبد"[2]، ألا وهو جامع القرويين القلب النابض الذي يرجع إليه الفضل كل الفضل في استمرار الوجود الإسلامي بهذه الديار وفي حياة الحرف العربي بسائر أطراف أفريقيا[3] وسيلاحظ الباحث أن الدول المتعاقبة على حكم المغرب من الشرفاء الأدارسة إلى الأشراف العلويين كثيرا ما سارعوا إلى ترك بصمات نفع وخير في هذا الجامع إما توسيعا أو بناءً أو إصلاحا أو تحبيساً.

وقد كان للمرأة المغربية نصيب في هذه النهضة الشاملة الكاملة بل وشكلت دائما عنصرا فعالا في تطور البلاد وتقدمها وازدهارها، وقد ذكرنا عملها العظيم في العصر الأول الذي يتمثل في تأسيس جامع القرويين دون أن نغفل مشاركتها في

الأعمال السياسية والأدبية في العصر المرابطي، ولا يشذ عصر عن سالفه في أخذ المرأة بأسباب النهوض، بل إنه يعطينا أمثلة رائعة لمساهمتها في دروب النشاط الفكري بإطلاق من علمي وأدبي، فمن الأسماء اللامعة التي عرفت بصفتها العلمية السيدة زينب ابنة الخليفة يوسف بن عبد المومن كانت عالمة فاضلة أخذت علم الكلام عن أبي عبد الله بن إبراهيم، ومن نساء الشعب السيدة خيرونة التي ألف الإمام السلالجي (574هـ) عقيدته البرهانية من أجلها، ولا شك أن لها يدا في نشر التوحيد على مذهب الأشعري بين نساء أهل فاس [4].

إسهام المرأة المغربية في ترسيخ عقيدة أهل السنة والجماعة

معلوم أن المرأة المغربية في عهد الموحدين نالت قسطا وافرا من التعليم وفتح لها الباب للمشاركة في الحياة العامة، وقد كانت بنات الأمراء قدوة لبنات الشعب في الإقبال على العلم والأدب بعد أن جعل عبد المؤمن التعليم إجباريا على النساء والرجال. ففي هذا العهد أدخلوا النساء في التعليم الإجباري ولم يقفوا بالمرأة عند هذا الحد من التثقيف، بل وسعوا نطاق تعليمها وضربوا ببناتهم مثالا لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المغربية.[5] كما نراهم يولون النساء المثقفات على عهدهم التفاتا خاصا يفتحون أبوابهم في وجوههن، ويصلونهن، ويزيحون ظلامتهن، ويستمعون –هم وبعض أمرائهم– لأدبهن، بل لقد وظفوا بعضهن معلمات بقصر الخلافة[6]

ومن النساء الأندلسيات اللاتي دخلن المغرب لهذا العهد واتصلن بأعلامه وتوفين به امرأة تسمى خيرونة (594هـ) أو "خدونة" كانت فقيهة صالحة، ومما يذكر من مفاخرها أن باقتراحها وضع الإمام السلالجي عقيدته الشهيرة توفيت سنة 594هـ ودفنت خارج باب الفتوح بإزاء قبر الفقيه دراس بن إسماعيل (357هـ) [7]

فهي من الصالحات كما عند ابن القاضي المكناسي ومن العابدات كما عند اليفرني، وأن الإمام نزولا عند رغبتها كتب لها شيئا مما يلزمها في خاصة نفسها من العقائد. قال اليفرني: فكان رحمه الله يكتب لها فصلا بعد فصل، فتحفظه، فكان ذلك دأبها حتى كملت هذه العقيدة، فكتبتها وكتبت عنها[8]

ويظهر أن سبب تأليفه لها هو ما حكاه تلميذه أبو الحسن بن عتيق قال "كان بفاس امرأة تسمى خيرونة وكانت من الصالحات القانتات الزاهدات الغافلات المؤمنات، وكانت تعظمه وتوقره، وتلزم مجلسه فرغبت إليه أن يكتب لها في لوحها شيئا تقرأه على ما يلزمها من العقيدة، فأخذتها أنا وقام بفكري أن أرتبها فصولا وأعمل لها شبه الخطبة، ثم شاورته في ذلك، فمنع منه وقال لي لم أتعرض فيها أن تكون تأليفا تكتب وتنشر، وإنما كتبتها لخيرونة على وجه كذا، فاتركها كما هي ولا تزد فيها شيئا فتخرج عما قصد بها، فتركها كما هي"[9]

ويتضح من هذا أن الفقيهة خيرونة الفاسية اختارت أن تتلمذ على أحد أقطاب العقيدة الأشعرية، عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو أبو عمرو عثمان بن عبد الله القيسي السلالجي (574هـ)، "المفكر الأشعري المغربي الذي رفع بعض المؤرخين درجته في علم الكلام في الغرب الإسلامي إلى درجة أبي المعالي الجويني في المشرق، وذلك لاطلاعه الواسع بأمور علم الكلام الأشعري من جهة، ودوره الكبير في بث ونشر المذهب الأشعري بالمغرب، حتى قيل عنه أنه هو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم، أي أنه أسهم إسهاما كبيرا في تكريس المذهب الأشعري مذهبا رسميا لدولة الموحدين"[10] كما يجوز لنا القول أن الإمام السلالجي قد وطن للعقيدة الأشعرية؛ عقيدة أهل السنة والجماعة في عصب المجتمع المغربي عندما كتب متن البرهانية لامرأة مغربية حريصة على صيانة عقيدتها وتعلم أمور دينها.

يقول ابن مومن تلميذ السلالجي: "كان بمدينة فاس امرأة تسمى خيرونة، وكانت من الصالحات القانتات الزاهدات الغافلات المؤمنات، وكانت تعظمه وتوقره وتلزم مجلسه، فرغبت إليه أن يكتب لها في لوحها شيئا تقرأه على ما يلزمها من

العقيدة، فكان يكتب لها في لوحها فصلا متى كلفته ذلك، فكانت تحفظه، فإذا حفظته ومحته كتب لها لوحا ثانيا، فكان ذلك دأبها حتى كملت عقيدة وكتبتها وكتبت عنها ولقبت بالبرهانية وصارت بأيدي الناس كثيرا"[11].

وبذلك تكون هذه المرأة الصالحة من أهم حلقات السند في رواية العقيدة البرهانية، "هذه العقيدة المختصرة التي فعلت في الفكر العقدي المغربي ما لم تفعله المؤلفات الضخمة، وأثرت فيه بما لم تؤثره الكتب المطولة"[12].

بل تكون خيرونة الفاسية قد ساهمت بشكل مباشر في نشر العقيدة الأشعرية بين بيوتات أهل فاس، وبصمت بأثر كبير في تعليم عقيدة أهل السنة للمرأة الفاسية المغربية أولا ثم المجتمع المغربي ثانيا.

حرص كبار العلماء على تلقين العقيدة الأشعرية للنساء

يقول الإمام ابن سيرين "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم". فنجد من كبار علماء المذهب الأشعري الإمام الباقلاني يقول "أما بعد: فقد وقفت على ما التمسته الحرة الفاضلة الدينة – أحسن الله توفيقها – لما تتوخاه من طلب الحق ونصرته، وتنكب الباطل وتجنبه. واعتماد القربة باعتقاد المفروض في أحكام الدين. واتباع السلف الصالح من المؤمنين من ذكر جمل ما يجب على المكلفين اعتقاده، ولا يسع الجهل به، وما إذا تدين به المرء صار إلى التزام الحق المفروض، والسلامة من البدع والباطل المرفوض. وإني بحول الله تعالى وعونه، ومشيئته وطوله، أذكر لها جملا مختصره تأتي على البغية من ذلك، ويستغنى بالوقوف عليها عن الطلب، واشتغال الهمة بما سواه. فنقول وبالله التوفيق"[13] كما نجد من علماء الدرس العقدي الأشعري بالغرب الإسلامي، والذي ما يزال تأثير كتبه العقدية ساري المفعول إلى عصرنا الحاضر، وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (895هـ) يضع عقيدة مختصرة صغيرة يخصصها للنساء؛ زوجته وبناته وسائر بنات المسلمين، تكون مختصرة وبسيطة، سميت في بعض نسخها بـ(المفيدة للولدان والنساء المؤمنات) واشتهرت بالحفيدة.

كما نجد الإمام سيدي عبد القادر بن علي الفاسي (ت1091هـ) يضع متنا عقديا مختصراً ليسهل تعليم العقيدة للنساء والصبيان، فقد ألف كتاب "عقيدة أهل الإيمان"، يقول في آخرها: "فهذا سرد عقيدة الإيمان، موضوعة لمن أراد تعليمها للنساء والصبيان، مصونة عن شبه أهل الزيغ والخذلان، خالية عن تقرير الدليل والبرهان"[14].

بل نجد المرأة المسلمة العالمة، تُقدم على التأليف في علم يعد من أصعب العلوم الشرعية، وبطريقة النظم الذي لا يتقنه كل أحد، ومثال ذلك نظم في العقيدة "العشرون الواجبة"[15] بقلم العالمة الفقيهة مريم الجكنية، وهو نظم عقدي غاية في النفاسة إذا قورن بعشرات المنظومات المشرقية والمغربية التي نظمها علماء كبار[16].

مركزية جامع القرويين في تثبيت العقيدة الأشعرية

لقد كان لجامع القرويين بفاس عبر التاريخ أثر بليغ على حياة المجتمع المغربي، ولم يقتصر فضله على أولئك العلماء الأعلام ممن درجوا بين أساطينها، ولازموا زواياها، واعتلوا كراسيها، ولكنه تعداه الى الفضليات من نساء فاس اللاتي كن يقصدن الأروقة الخاصة التي تشرف على المجالس العلمية، فكانت العرائس في خدورهن على بينة من أمور دينهم ودنياهن لأنهن تلقين في دور الفقيهات ما تلقته هؤلاء بدورهن عن شيوخهن.[17] بل كانت بنات الخلفاء المثقفات التي حافظ عليها التاريخ (زينب بنت يوسف بن عبد المومن) حرم الأمير عبد الرحمن بن عمر بن عبد المومن، أخذت عن أبي عبد الله بن ابراهيم علم الكلام وغير ذلك، وكانت عالمة صائبة الرأي فاضلة معروفة بالشفوف على نساء زمانها"[18] وما خيرونة الفاسية وغيرها إلا خير دليل على ذلك المثال من الفقيهات الفضليات، اللواتي أخذن يتفقهن في الدين وينافسن في أعمال البر، مستحضرات قول الطاهرة الزكية أمنا عائشة المرضية، حيث قالت: "نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من أن يتفقهن في الدين" [19]

حاجة الأمة المغربية اليوم إلى تفعيل دور جامع القرويين في تأطير المجتمع ودور المرأة في حماية الأجيال.

ظلت المرأة المغربية منذ صدر الإسلام والى يومنا هذا مشاركة في بناء الصرح الحضاري الإسلامي المجيد، منافسة في أعمال البر والخير، قدوتها في طلب العلم والتفقه في الدين أمهاتنا زوجات رسول صلى الله عليه وسلم، قال عطاء ابن رباح" كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا في العامة"[20] وقدوتهن في أعمال الإحسان والخير أم البنين فاطمة الفهرية القيروانية، تلك المرأة العظيمة التي أسست أعظم وأقدم جامعة في التاريخ، ولا تزال إلى يومنا هذا شاهدة على مجد حضارة مغربية عتيدة.

فما أحوج الأمة المغربية اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى نسائها الفضليات المثابرات، في ظل التغيرات والتحويلات التي شهدتها المجتمعات الإنسانية، من تغيب للقيم والمبادئ والأخلاق الفاضلة، أليس لنا في قول الشاعر حافظ ابراهيم خير مثال للمرأة حيث يقول:

من لي بتربية البنات فإنها — في الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتها — أعددت شعبا طيب الأعراق

الأم روض إن تعهده الحيا — بالري أورق أيما إيراق [21]

وما أحوج المجتمع المغربي عامة والمجتمع الفاسي خاصة إلى عودة الروح إلى جامع القرويين العامر من خلال عودة المرأة المغربية إليه، حضورا وتعلما وتفقها وتدريسا، بل أصبح من الواجب فتح تخصصات ومسالك علمية ومعرفية بجامع القرويين تشارك فيه المرأة المغربية جنبا إلى جنب شقيقها من أجل صيانة الهوية وحفظ العقيدة وحماية الخصوصية المغربية.

خاتمة

ختاما يجب علينا الإقرار بأن المجتمع المغربي اليوم، تصهره عوامل شديدة الخطر، ظاهرة الضرر، قوية الأثر، نتيجة مؤثرات خارجية شرقية وغربية يكاد خطرها يفتك بالأمن الروحي والاجتماعي للأمة المغربية، دون أن نغفل التقليد الأعمى وصدمة

العولمة وما يعقبها من لحظه انبهار. وكلها أسباب تحتم على الأمة المغربية دق جرس الإنذار من اجل حماية الهوية وصيانة الخصوصية واستنهاض الهمم أفرادا وجماعات حكاما ومحكومين لقطع الطريق على جنود الشياطين من دعاة الترهيب وأنصار المنحلين، نسأل الله لهم الهداية أجمعين.

الهوامش:

[1] محمد شلتوت، الاسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، ص9

[2] عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، دار نشر المعرفة الرباط، ج 1 ص 46

[3] عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص 11

[4] عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الادب العربي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، ج 1 ص 144

[5] محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، ص33

[6] محمد المنوني، المرجع نفسه، ص 33

[7] محمد المنوني، المرجع نفسه، ص 35

[8] سلسلة التأصيل العقدي في الغرب الإسلامي محمد جمال، ص 149

[9] ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والادب والسياسة عبد الله بنون دار ابن حزم الطبعة الاولى 2010/ 1430 المجلد الأول الصفحة270

[10] تطور المذهب الأشعري بالمغرب في الغرب الإسلامي يوسف حنانة ص 152

[11] ابن مومن بغية الراغب عن المديوني الشرح 60-61 نقلا عن عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، الدكتور جمال علال البختي، ص:186.

[12] عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية، الدكتور جمال علال البختي، ص:184

[13] القاضي أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به،ت محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ص 13

[14] عقيدة أهل الإيمان، لعبد القادر الفاسي، طبعت طبعة حجرية ونشرت حديثا بعناية الباحث نزار حمادي.

[15] ضمن مجموعة من المخطوطات الموريتانية المتواجدة بجامعة فريبورغ، رقم: 2043.

[16] بتصرف من بحث الشيخ محمود بن محمد المختار الشنقيطي، لماذا الشناقطة يحفظون؟، مجلة البيان، ع: 135، ذو القعدة – 1419هـ/مارس – 1999م.

[17] جامع القرويين عبد الهادي التازي ص .14

[18] محمد المنوني، مرجع سابق، ص33

[19] صحيح ابن ماجة رقم 531 حديث حسن

[20] أ خرجه الحاكم في المستدرك 4/ 15 برقم 6748

[21] ديوان حافظ ابراهيم، قصيدة العلم والاخلاق، ص 267